التعديلات في واجهات المباني السكنية كمؤشر لمناسبة التصميم

د.م. عزت عبد المنعم مرغني

أستاذ مشارك بقسم العمارة وعلوم البناء
كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود.
*E-mail:*ezzatmorghany@yahoo.com

تاريخ الورود 13 نوفمبر 2012 ، تاريخ القبول 20 يناير 2013

ملخص البحث:

تمثل مشكلة عدم توافق التصميمات المعمارية لبعض المساكن مع احتياجات ساكنيها واحدة من المشكلات التي تعاني منها المناطق السكنية، وتعد تعديلات الواجهات أحد مظاهر محاولة المستفيد الفعلي لتوفيق التصميم المعماري مع متطلباته الخاصة؛ وهو ما يجعل الواجهة تفقد تصميمها الأصلي وتتحول إلى مجموعة من الواجهات الصغيرة والتي تعبر كل منها عن تفضيلات وخيارات الساكن دون أي ارتباط بالواجهة الأصلية.

يهدف البحث إلى دراسة إمكانية التعامل مع التعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المباني كمؤشر لقياس مدى مناسبة التصميم الأصلي لاحتياجات المستخدم، ومن ثم كيفية الاستفادة من ذلك المؤشر في المشروعات المستقبلية.

يناقش البحث مفهوم مناسبة التصميم لمستخدميه الفعليين، والمداخل المختلفة لتصميم واجهات المباني السكنية في جزئيه الأول والثاني، وفي الجزء الثالث من البحث يتم تصنيف للتعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المباني السكنية - في مشروعات الإسكان العام للفئات الأقل دخلا- إلى نوعين، أولهما تعديلات غير مقصودة ولكنها تمثل أحد مظاهر محاولة الساكن استيفاء احتياجات وظيفية مفقودة في التصميم الأصلي للمسكن، والنوع الآخر هو تعديلات مقصودة لذاتها بحثا عن تميز أو إضافة جمالية من خلال وجهة نظر المستخدم، وتعد مشروعات الإسكان العام لذوي الدخل المحدود بوحداتها المتماثلة وواجهاتها الرتيبة التي يراها الغالبية مملة وغير مميزة البيئة المثالية للنوع الثاني من التعديلات، وفي الجزء الأخير دراسة إمكانية الاستفادة من التعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المباني.

ويخلص البحث إلى أنه يمكن التعامل مع التعديلات كمؤشر لمناسبة التصميم (سواء المناسبة المادية أو المعنوية)، لكن لا يمكن الاستفادة منها بصورة محددة في التصميم المعماري للمشروعات المستقبلية، ويقدم البحث بعض التوصيات التي يمكن من خلالها التعامل مع مشكلة تعديلات المستخدمين على الواجهات في التصميمات الجديدة لمشروعات الإسكان العام.

1. مقدمة

يمثل الإسكان حوالي 60% من الكيان العمراني الحضري في العالم، وتمثل الوحدة السكنية اللبنة الأساسية في كيان الإسكان سواء على مستوى التخطيط العمراني أو على مستوى التصميم المعماري[1]، وتعاني المساكن بصفة خاصة والمناطق السكنية بصفة عامة من مشكلات عديدة؛ وتعد مشكلة عدم توافق التصميمات المعمارية لبعض المساكن مع احتياجات ساكنيها واحدة من تلك المشكلات.

ويعد تصميم المسكن من أكثر المهام صعوبة في مجال العمارة، ففرضية أن المصمم على دراية كافية بالاحتياجات الإنسانية للسكان المحتملين من أكثر العوامل تأثيرا على تصميم نماذج المباني السكنية، وهذه الفرضية مبنية على أساس الاحتياجات العامة للإنسان والتي قد تهمل في بعض الأحيان العوامل الاجتماعية

والثقافية والتي تجعل من كل إنسان شخصية متفردة من الصعب التنبوء بمتطلباتها؛ مما ينتج عنها تعرض المساكن للتبديد والتبديل نتيجة لعجزها عن مواكبة الاحتياجات المتنوعة والمتغيرة للسكان بما يمثل إهدار لطاقات وموارد[5].

ومن جهة أخرى فإن واجهات المباني السكنية هي ما يشكل الصورة البصرية للمدينة المعاصرة وباستثناء بعض المباني المميزة ذات الأهمية الخاصة - والتي تمثل معالم بصرية مرجعية لا يمكن إغفال تأثيرها- فإن ما يراه المشاهد المتحرك في المدينة هو حصيلة لمجموعة متتابعة من واجهات مباني سكنية عادية تلبي احتياج السكن الأساسية للغالبية العظمى من قاطني المدينة.

وإذا كان من المتعارف عليه أن البيئة الداخلية للمسكن هي ملكية فردية للمستخدم قد تتأثر بالذوق العام للمجتمع الذي يعيش فيه إلا أنها تخضع لثقافة المستخدم ورغباته وإمكانياته، إلا أن الواجهات الخارجية للمسكن لا يمكن التعامل معها بنفس المنطق؛ حيث تمثل ملكية جماعية يتشارك فيها المصمم مع المالك مع المستخدم مع المجتمع المحيط، رغم أن تصميم واجهات المبني لا تتاح للجميع المشاركة فيه بل يظل طرح أو رؤية يقدمها المعماري المصمم (أو فريق التصميم) في ظل مجموعة من العوامل المؤثرة، وتعد الخيارات الفردية للمصمم في مقدمة تلك العوامل على تصميم واجهات المباني بالإضافة إلى العوامل الناتجة عن البرنامج المعماري الوظيفي للمبنى أو ظروف الموقع أو اشتراطات قوانين وتشريعات البناء، وربما تكون احتياجات المستخدم النفسية والفيزيائية من أقل تلك العوامل تأثيرا في تصميم واجهات المباني السكنية.

1.1. اشكالية البحث

يلاحظ أن واجهات المباني السكنية المجمعة (العمارات السكنية سواء كانت خاصة أو حكومية هي النموذج الأكثر شيوعا في مجال الإسكان في مصر) كثيرا ما تتعرض لتعديلات يقوم بها الساكن في الجزء الخاص بوحدته السكنية من واجهة المبنى، وهو ما يجعل الواجهة تفقد تصميمها الأصلي وتتحول إلى مجموعة من الواجهات الصغيرة والتي تعبر كل منها عن تفضيلات وخيارات الساكن دون أي ارتباط بالواجهة الأصلية.

ورغم أن هناك بعض الأمثلة لتلك التعديلات في مشروعات إسكان خاصة، إلا أن تلك الظاهرة تكون أكثر انتشارا ووضوحا في مشروعات الإسكان العام المخصصة للفئات الأقل دخلا، لذا فإن البحث يركز على تلك النوعية من المشروعات، ومن ثم يكون السؤال الذي يطرحه البحث هو: هل يمكن التعامل مع التعديلات التي يجريها السكان على واجهات المباني كأحد أساليب التعبير النقدي عن عدم الرضا عن التصميم ومن ثم الاستفادة منه؟، وكيف يمكن التعامل مع تلك المشكلة في مشروعات الإسكان العام المستقبلية.

1.2. هدف البحث.

يهدف البحث إلى دراسة إمكانية التعامل مع التعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المباني كمؤشر لقياس مدى مناسبة التصميم الأصلي لاحتياجات المستخدم، ومن ثم كيفية الاستفادة من ذلك المؤشر في المشروعات المستقبلية.

1.3. منهجية البحث

لتحقيق هدف البحث والإجابة عن تساؤله الرئيسي يتم:

- التعرف على المقصود بمفهوم مناسبة التصميم.
- المداخل المختلفة لتصميم واجهات المباني السكنية.
- تصنيف للتعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المباني السكنية.
- دراسة إمكانية التعامل مع التعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المباني كمؤشر لقياس مدى مناسبة التصميم، وإمكانية الاستفادة من دراستها.

2. مفهوم مناسبة التصميم

هل يختلف مفهوم (مناسبة التصميم) عن (سلامة التصميم)؟... قد يبدو للبعض أنهما تعبيران مختلفان يؤديان نفس المعني؛ غير أن الواقع يثبت أن لهما معنيان مختلفان، فالتصميم قد يحكم عليه نظريا بأنه سليم لأنه توافق مع كل العوامل المؤثرة بصورة مناسبة؛ غير أن الواقع الفعلي قد يفاجئ المصمم بأن المستخدم الفعلي للمبنى له رؤيته الخاصة المختلفة تجاه التصميم الذي يفترض نظريا أنه سليم، ومن ثم فإن التصميم قد يكون له كل مقومات النجاح إلا أنه لا يناسب مستخدمه الفعلي؛ مع الأخذ في الاعتبار أنه مع الزمن قد يصبح غير المناسب مناسبا، فتغير الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرية تتدخل لتغير موقف المستخدم من نفس العمل المعماري.

كما أن العمر الافتراضي للعمل المعماري يجعل من المعماري مصمما للحاضر والغد؛ إذ يصمم لأجيال ستأتي من بعده لها متطلباتها الخاصة[2]، و مهما بذل المصمم أو رب العمل من جهد في محاولة تحديد مستقبل المنشأ فإنه قد يفاجأ أحيانا بما لم يكن في الحسبان، فشاغلي البناية ومستخدميها قد يبتكرون طريقة مغايرة لاستخدام المنشأ، أو قد يضيفون إليه أو يحذفون منه، وإمكانيات المستخدم قد ترتفع أو تنخفض لسبب أو لآخر مما قد يهدم الأساس الاقتصادي الذي تم البناء على أساسه[5]، ورغم أن دراسات تقييم ما بعد الإشغال تعد من الوسائل التي يمكن من خلالها اكتساب معلومات جديدة لطبيعة الاستخدام يمكن الاستفادة منها في المشروعات المستقبلية المشابهة؛ إلا أنها تظل غير كافية لأن تصميم المشروعات الجديدة سيكون مستخدميه أشخاص مختلفين لكل منهم رؤيته الخاصة التي قد تكون غير متوقعة أحيانا.

وفكرة مناسبة التصميم تتضح أكثر في مشروعات الإسكان العام، وهي مشروعات يتم إنشاؤها في صورة مجموعة من العمارات السكنية التي يغلب عليها استعمال النماذج المكررة والارتفاعات الموحدة، والمخططة في صورة مصفوفات متوازية، في تلك النوعية من المشروعات يقدم المعماري خدماته لمن يدفع له أتعابه وهو المالك سواء كان جهة اعتبارية أو شخص يستثمر أمواله في مجال الإسكان، بينما من يصله نتيجة ذلك العمل هو نوع آخر من العملاء قد لا يقابله في أي من مراحل عملية التصميم [8]، من هنا فإن ما يواجهه المصمم في الحقيقة هو مشكلة تلبية طلبات نوعين من العملاء أحدهما الذي يدفع والذي قد تكون اعتباراته ومتطلباته مختلفة عن النوع الآخر من العملاء (العميل غير المباشر وهو المستخدم الفعلي) وهو المستفيد الفعلي من التصميم والذي يبدأ بدوره في تلبية احتياجاته من خلال تعديلات يجريها على وحدته السكنية والتي لم يكن له دور في تصميمها، ومن البديهي أن هذا الأمر لا يؤثر على المظهر العام للمبنى السكني طالما كان في حدود التعديلات الداخلية؛ غير أن مشكلته تظهر عندما تتجاوز التعديلات الداخل إلى الخارج، ومن المنطقي أنه لا يمكن تحميل المصمم مسؤولية تلك النوعية من التعديلات المحتملة، فقد تكون الاحتياجات متحققة في التصميم ولكن نتيجة تغير في الظروف والإمكانيات قد يحتاج المستخدم لإجراء تعديلات. وتعد تعديلات الواجهات أحد مظاهر محاولة المستفيد الفعلي (المستخدم) توفيق التصميم المعماري مع متطلباته الخاصة.

لا يمكن إنكار أن هناك جهود للمعماريين وعلماء الاجتماع لإشراك المستخدم في عملية التصميم في مشروعات الإسكان العام ليتم التأكد من أن المسكن سوف يوافق نمط حياتهم ومن خلال مشاركة العميل في

عملية التخطيط والتصميم بشكل ما، بحيث تكون احتياجات المستخدم معروفة ومحددة ليحققها التصميم بدلا من التغيير الذي من الممكن أن يحدث في مرحلة الإشغال، حيث انتهت بعض الدراسات إلى أن هناك ثلاثة قواعد قد تضمن مناسبة التصميم لمستخدم غير معروف وهي[8]:

- حرية العميل في الاختيار بين مجموعة من الخيارت أو البدائل التصميمية التي يقدمها المصمم.
- التعرف على كافة الاحتياجات غير المنظورة للمستخدم المباشر من خلال الدراسات المتعددة.
- احترام الاحتياجات الخاصة للعميل غير المباشر من خلال توفير نوع ما من المرونة في التصميم بحيث يوفر إمكانية استيعاب الاحتياجات الخاصة للمستخدم بدلا من أن تدفعه إلى تغيير احتياجاته ليتوافق مع التصميم.

القواعد الثلاثة السابقة رغم منطقيتها إلا أنها لا تضمن مناسبة التصميم وخاصة في مشروعات الإسكان ذات النماذج السكنية الموحدة، ففكرة الاختيار على سبيل المثال تتعارض مع أحد الأسس الفكرية التي تقوم عليها مشروعات النماذج السكنية الموحدة والتي يلعب المؤثر الاقتصادي دورا كبيرا فيها، والتي تفترض أن المستخدم لابد وان يتوافق النموذج السكني الذي يقدمه له المصمم لأن البشر متشابهون واحتياجاتهم الضرورية متشابهة، ومن ثم المصمم يصمم لاحتياجات المستخدم كما يراها هو وغالبا ما يضع قيمه هو بصورة لاإرادية؛ فيصمم بالطريقة التي يعيش بها هو أو بالكيفية التي يعتقد أنهم يجب أن يعيشوا بها لا كما يحبوا بالفعل[8]، ومن ثم فإن التغيير لتحقيق الاحتياجات المهملة ليناسب التصميم المستخدم الفعلي قد يكون هو الخيار الوحيد المتاح للمستخدم، مع ملاحظة أن مفهوم الاحتياجات يمتد ليشمل الاحتياجات النفسية والتي قد تجعل من تصميم ما مناسباً وظيفيا واقتصاديا واجتماعيا غير أنه لسبب غير معلوم قد يكون مرفوض نفسيا.

3. تصميم واجهات المباني السكنية بين مفاهيم الشكل والوظيفة

الأشكال التي تأخذها المباني هي حصيلة ظواهر مركبة ولا تخضع لعامل مؤثر وحيد بل لمجموعة متداخلة من العوامل تتنوع درجة تأثيرها [9]، وتصميم واجهة مبنى هو نتيجة لمجموعة من المحددات المتداخلة (محددات تشكيلية/ بيئية/ وظيفية / اقتصادية / ثقافية/ اجتماعية/ إنشائية/... إلخ)؛ ويتم ترجمة تلك المحددات من خلال عناصر الواجهة والتي تتراوح بين الغاطس والبارز - والتي يظهر تأثيرها التشكيلي مع الضوء من خلال الظلال-، والفتحات والمصمت، بالإضافة للعناصر ذات الطبيعة الزخرفية، مع توظيف الملمس والخواص اللونية لعناصر الواجهة

تصميم واجهات المباني السكنية في مشروعات الإسكان العام المخصصة للفئات الأقل دخلا له خصوصية تميزه عن المساكن الخاصة والمباني العامة، فتلك النوعية من المشروعات لا تتيح للمصمم الحرية في التشكيلات الكتلية مثل المساكن الخاصة الفردية أو المباني العامة أو المباني الإدارية، فالقيود الاقتصادية والتنظيمية قد تقلل من الخيارات المتاحة للمصمم، وغالبا ما يعتمد المصمم على قائمة من موروث التطبيقات المعمارية المحلية والإقليمية وتشمل التطبيقات على عناصر من التعابير المعمارية والرموز والأشكال، كما تمثل نصوص قوانين البناء والتنظيم أحد أكثر المحددات تأثيرا على تصميم واجهات المباني السكنية في المدينة المصرية خصوصا؛ حيث تحدد الارتفاعات و نسب الأبراج والبلكونات وينحصر دور المعماري على المحاورة بعناصر الواجهات طولا وعرضا بروزا ودخولا.

من الناحية النظرية فإن كلمة المبنى تحديدا قد تستدعي إلى الذهن واجهات وكتل وفراغات لها سمات محددة؛ وما يحدث في تلك الحالة أن مردود الكلمة في ذهن المستمع هو استدعاء لشكل Form، وفي أحوال أخرى قد تستدعي نفس الكلمة وظائف Functions يمارسها الإنسان في فراغاتها (معيشة أو طعام أو نوم،

مستشفي أو مدرسة ...) وفي جميع الأحوال المعاني كلها واردة [10]، وعند تصميم مفردات الواجهات يكون المصمم أمام خيارين إما أن يكون تصميمه للواجهة من خلال مفاهيم الشكل (form) فيخضع عناصر الواجهة لقيم التشكيل المعماري، ويكون اختياره للعناصر والمواد والألوان من منطلق إمكانياتها التشكيلية، وقد يكون مدخله لتصميم الواجهة من خلال مفاهيم الوظيفة (function) فتكون عناصر الواجهة إما انعكاس للوظائف التي تغلفها فيكون كل جزء من الواجهة مرتبط بطبيعة الوظيفة خلفه؛ فيكون حجم وشكل النوافذ مثلا بأقل تكلفة ممكنة وبما يسمح بأعلى كفاءة وظيفية لترتيب قطع الأثاث في الفراغ - من وجهة نظر المصمم- ويأتي تأثير التشكيل في مرتبة متأخرة، وهو ما يحدث غالبا كلما قلت المساحات وزادت الرغبة في تقليل التكاليف، وقد يكون كل عنصر في الواجهة لوظيفة يؤديها؛ قد تكون تلك الوظيفة بيئية مثلا... ككواسر الشمس الأفقية والرأسية والتي تتحدد أماكنها وأبعادها بناءا على حسابات مناخية، أو وظيفة إنشائية في حالة توظيف العناصر الإنشائية (مثل بلاطات أسقف الأدوار أو الأعمدة) في تصميم الواجهة.

ولا يمكن إنكار أن كلا المفهومين السابقين يحمل التداخل مع الآخر فالشكل من وجهة نظر بعض النقاد هو نتيجة لوظيفة وقد يتلاءم معها، كذلك الوظيفة (سواء الوظيفة العامة للمبنى من وجهة النظر التعبيرية، أو الوظيفة الجزئية لكل عنصر في الواجهة كأبعاد وشكل كواسر الشمس على سبيل المثال) قد تتطلب شكلا وقد تتعارض مع شكل آخر، لكن في كلا المفهومين هناك منتج تصميمي هو الواجهة التي تتواصل بصريا مع المشاهد وتغليب أحد المفهومين على الأخر هو نتيجة لاجتهاد المصمم واختياره.

أن مشكلة أي المفهومين له الأولوية عند تصميم الواجهة هو ما قد يؤدي إلى التعديلات التي تتم في الواجهات والتي تتضمن أولوية مختلفة للمستخدم عن تلك التي كانت للمصمم، فقد يكون تصميم الواجهة من منطلق تشكيلي يحدد أماكن وشكل النوافذ والبلكونات على سبيل المثال، بينما الساكن يرى أن احتياجاته الوظيفية غير متحققة ومن ثم يعدل الواجهة بحيث تكون انعكاساً لمحاولاته تحقيق متطلباته الوظيفية؛ ولا يعنيه في تلك الحالة ما سوف تكون عليه الواجهة فيغير أماكن النوافذ أو شكلها أو مساحتها وقد يضم مساحة البلكونة إلى الفراغ، وقد تختلف المتطلبات باختلاف الظروف بكل ما تعنيه سواء من الناحية الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية.

وفي جميع الأحوال لا يمكن إغفال تأثير رغبة المصمم في التعبير عن ذاته في التصميم الأصلي للواجهة، أو رغبة المستخدم في التعبير عن ذاته من خلال التعديلات التي يجريها على الواجهة.

4. التعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المباني السكنية

يرى علماء النفس أن الإنسان يحتاج دوما للتغيير والتطوير بمرور الزمن نتيجة لتغير الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية، لذا فمن جهة تتباين متطلبات مستعملي المسكن باختلاف أذواقهم واحتياجاتهم وإمكانياتهم، ومن جهة أخرى تتغير متطلبات المنتفعين أنفسهم نتيجة لتغير في العمر أو الوضع الاجتماعي أو نتيجة لتغيرات تكنولوجية في نوعية أداء الأنشطة فتتولد الحاجة إلى تغيير طريقة الانتفاع بالفراغات سواء بالإضافة أو الإلغاء، وقد يتبع التغير في حجم الأسرة وأفرادها بالزيادة أو النقصان الحاجة إلى إجراء تعديلات في المسكن في عدد الغرف واستعمالاتها أو في مساحتها، ومن الصعوبة أن يستوعب المصمم في تصميم موحد كل هذه التباينات[5].

وفي معظم الأحيان فإن المعدلات والتوصيات المرتبطة بتصميم المسكن تظل عاجزة عن إنتاج ما يلائم الأنماط المعيشية لمختلف طبقات المجتمع، ونتيجة التغير في المتطلبات الانتفاعية للمسكن على مدار دورة حياة الأسرة يكون أمام المستعمل متى سمحت ظروفه الاقتصادية أحد اختيارين[5]:

- تبديل المسكن أو الانتقال إلى مسكن آخر يلائم الاحتياجات والإمكانيات الجديدة، وهو ما لا يتاح للغالبية.
- محاولة التعديل من خلال إعادة تشكيل الفراغات بهدف تلبية الاحتياجات الجديدة بقدر الإمكان.

وفي حالة عدم القدرة على تغيير المسكن فإن محاولات المستخدم تلبية احتياجاته سوف تنعكس على واجهات المبنى بشكل أو بآخر، وهذه التعديلات قد تصنف من الناحية المادية إلى: تعديلات بسيطة (Soft modification) ويكون تأثيرها ضعيف، وتعديلات جوهرية (Hard modification) لا يمكن تجاهل تأثيراتها على الكيان المادي للواجهة وتتمثل في إضافة عناصر الواجهة الأصلية أو تغيير مكان أو نسب فتحات، ولا يمكن الجزم بأن كل التعديلات تكون لاحتياجات وظيفية فقد تكون أحيانا لاحتياجات نفسية، لذا فمن الممكن تصنيف التعديلات التي يجريها السكان على واجهات المسكن إلى نوعين[6]:

- تعديلات في الواجهات كانعكاس لاحتياجات وظيفية: وهي ما يمكن أن نطلق عليها تعديلات جوهرية في تصميم الواجهة مثال تقفيل البلكونات بمواد وأساليب مختلفة لإضافة مسطحها للفراغات الداخلية، أو لتحقيق نوع من الأمان بالنسبة للأدوار السفلية من المبنى أو للحماية من الأتربة، أو إضافة المظلات لتوفير الحماية من الشمس أو لتوفير الخصوصية.
- تعديلات كانعكاس لاحتياجات نفسية: وهي تعديلات غير جوهرية بحثا عن تميز أو إضافة جمالية - من خلال وجهة نظر المستخدم- وهي تتراوح بين إعادة التشطيب بهدف الصيانة والتجديد أو الدهانات والتكسيات بمواد وألوان مختلفة عن الواجهة الأصلية.

1. 4. التعديلات كانعكاس لاحتياجات وظيفية

لا تتاح للمعماري المصمم لنماذج الإسكان العام فرصة مقابلة المستخدمين الفعليين لتلك النماذج خلال مرحلة التصميم المعماري، وإنما يعتمد على مجموعة من الدراسات المتنوعة (اجتماعية/ اقتصادية/ ...) بالإضافة إلى تصوراته وخبراته الذاتية، مما قد يخلق فجوة بين المصمم والمستخدم الفعلي، فالمصمم غالبا ما يفترض أن تلك النماذج سوف توافق احتياجات جميع المستخدمين، إلا أن الحقيقة غير ذلك؛ فلكل أسرة ولكل فرد فيها احتياجاته الخاصة والتي تتطور مع مراحل الحياة (حجم الأسرة/ الإمكانيات الاقتصادية/ المستوى الاجتماعي) بينما تصمم النماذج من أجل مستخدم نمطي باحتياجات نمطية تم افتراضها خلال مرحلة التصميم.

تظهر مشكلة مناسبة التصميم للمستخدم عند الاستخدام الفعلي، فإذا لم يكن المسكن مناسبا لاحتياجات ساكنه ورغباته فإنه يكون بين خيارين:

- إما أن يحاول التكيف مع الوضع القائم فيعدل احتياجاته وقد يضحي ببعضها.
- وإما أن يحاول تغيير الوضع القائم طبقا لما يتوفر له من إمكانيات ويستمر في هذا التغيير كلما سمحت له إمكانياته، وبالتوازي مع تلك التغييرات تتعرض الواجهة لتغييرات غير مقصودة لذاتها، وهو ما قد يطرح تساؤل: هل الساكن في حاجة إلى الاهتمام بالواجهة إذا كانت احتياجاته الضرورية غير متحققة؟، هل هناك احتياج لجمال **شكل** الواجهة كقيمة (هذا إذا اتفقنا على مفهوم الجمال)؟ أم أن مفهوم **الوظيفة** هو الأكثر تأثيرا.

وبنظرة سريعة على الإسكان العام في مناطق مختلفة في مصر نجد أن السكان قد قاموا بالعديد من التغيرات في المباني حتى تتواءم مع احتياجاتهم (هدم حوائط/ تغيير لأماكن أبواب ونوافذ/ أو إضافتها/ إضافة لحجرات كاملة أو عدة حجرات/ تقفيل البلكونات) وكان لتلك التعديلات تأثير على الواجهة الخارجية الأصلية للمبنى[5]، ويوضح (شكل -1) نماذج لبعض التعديلات التي قام بها السكان وكان لها انعكاس على واجهات العمارات السكنية والتي يمكن تصنيفها كانعكاس لاحتياجات وظيفية، ويلاحظ أنها لم ترتبط بإقليم محدد بل امتدت من شمال مصر إلى جنوبها مما يكسبها صفة العمومية.

شكل (1- أ): (تقفيل البلكونات - تغيير مقاسات ونماذج الشبابيك) مساكن المحمودية، أسوان، مصر

شكل (1- ب):(إضافة فراغات جديدة للمسكن- تقفيل البلكونات) إسكان عين الصيرة بالقاهرة، مصر [4]

2. 4 .التعديلات كانعكاس لاحتياجات التعبير عن الذات

ما الذي يجعل المسكن بيت (What makes a house a home?)، هل هناك فرق بين المسكن والبيت؟ قد يكون هذا السؤال مدخلا لتفسير بعض التعديلات التي يجريها المستخدمين الفعليين على بيئتهم السكنية، فالبيت يمثل جزءا من شخصية ساكنيه يتأثر بها ويؤثر عليها، وهذا التأثير لا يتوقف عند مستوى ثقافي معين

أو إمكانيات مادية محدودة؛ فغالبية السكان يرغبون في ترك بصمتهم لتمييز مساكنهم وجعلها متفردة ومختلفة عن الآخرين، والحاجة للتعبير عن الذات هي أحد الحاجات الرئيسية للنفس البشرية والتي لا يمكن تجاهلها حتى مع اختلاف المستوى الاقتصادي للأفراد.

والتعبير عن الذات أو الهوية الفردية كظاهرة اجتماعية هو فعل موجه للخارج، بمعنى أنه فعل موجه للآخرين هدفه الإعلان عن تلك الهوية، بالطبع لا يمكن تجاهل أن البيئة الداخلية للمسكن قد تكون أحد أساليب التعبير الممكنة عن الهوية والتميز الفردي من خلال الديكورات والأثاث وغيرها من العناصر التي تكسب كل مسكن شخصيته المتفردة المرتبطة بساكنيه؛ غير أن الواجهة الخارجية هي المكان الأكثر فعالية كوسيلة لإعلام الآخرين بالتميز والاختلاف، وقد تكون تلك التعديلات التي يجريها الساكن - على الجزء الذي يخصه من واجهة المبنى - هي الوسيلة الوحيدة المتاحة له لإظهار الفروق الفردية والتميز الشخصي، ومحاولة الساكن إعلام الآخرين بذلك التميز من خلال الواجهة يختلف من شخص لآخر حسب ذوقه الفردي أو الاجتماعي، وكذلك إمكانياته الاقتصادية.

وعملية إضفاء الشخصية على المسكن - سواء كانت مجرد ظاهرة يكفى رصدها أو مشكلة يتم البحث عن حل لها- تتم من خلال تعديلات فيزيائية على البيئة المبنية، وغالبا ما تكون تلك التعديلات أو التغييرات على الجزء الخارجي من المسكن سواء كانت ايجابية أو سلبية [7].

ومن ثم يمكن القول بأن التعديلات التي يجريها السكان على واجهات مساكنهم ليس بالضرورة أن تكون تعبيرا عن عدم رضا المستخدمين عن التصميم الوظيفي للمسكن، بل قد تكون لأسباب نفسية تعبر عن رغبة السكان في أن يكون منزلهم مختلفا[8]، وقد تكون تلك التعديلات لرغبة الساكن في إكساب مسكنه لمحة من جمال تعويضا عن افتقار واجهة المسكن ككل لأي لمحة جمالية (من وجهة نظر الساكن والذي قد تكون مفاهيمه الجمالية مختلفة عن المصمم).

وتمثل مشروعات الإسكان العام البيئة المثالية لهذه النوعية من التعديلات، فتصميم غالبية تلك المشروعات عبارة عن وحدات متماثلة ذات واجهات رتيبة وتفتقد إلى الاعتراف بأن كل أسرة وكل فرد فيها هو شخص فريد يجب أن يشعر بتفرده وخصوصيته[3] وإهمال ذلك يؤدي إلى رد فعل عكسي يتمثل في تعديلات الواجهات متى أتيحت للساكن الإمكانيات وتهيئة الظروف، وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة من نوعية بعض التعديلات التي يجريها السكان في تلك النوعية من المشروعات، حيث يجري الساكن في بعض الأحيان تعديلات تشكيلية ليس لها أي مردود نفعي مادي ويمكن تفسيرها فقط من خلال البعد التعبيري للعمارة.

ويوضح (شكل -2) أمثلة لتعديلات قام بها السكان على الواجهات الخارجية في مشروعات مختلفة للإسكان العام في مناطق مختلفة من الجمهورية ويمكن تصنيفها باعتبارها تعديلات بهدف التعبير عن الذات.

شكل (2): أمثلة للتعديلات التي تتعرض لها الواجهات في مشروعات الإسكان العام بمصر (تغيير تشطيبات وألوان البلكونات - تغيير ألوان الشبابيك – تحويل البلكونات إلى لوحات فنية) والتي يمكن تصنيفها كتعبير عن الرغبة في التميز، والتي يلاحظ أن لها صفة التكرار في أغلب مناطق الجمهورية مما يجعلها ظاهرة مرتبطة بذلك النمط من الإسكان (الأمثلة لنماذج من أسيوط وقنا وأسوان).

5. التعديلات كأحد أساليب التعبير النقدي

في ثمانينيات القرن الماضي طرح (Attoe, 1978) الفكرة القائلة بأنه في مجال العمارة يمكن التعامل مع أي رد فعل تجاه البيئة المبنية باعتباره شكل من أشكال النقد المعماري، وأن مستخدم المبنى يمكن اعتباره نوعا من النقاد أهم ما يميزه هو أنه لم يساهم بأي نوع من المشاركة في إنشاء البيئة المبنية التي يستخدمها، كما أنه غير متخصص ولم يتلق أي تدريب أو تعليم في مجال العمارة أو مجال النقد المعماري، لا يفترض أن تكون أراء هذا النوع من النقاد أقل قيمة، فهي تعطي مؤشراً لرغبات وذوق العامة وهو ما لا يمكن إهماله، ويتميز هذا النوع من النقد بأنه تال لعملية تنفيذ العمل، لذا فالاستفادة منه تكمن في مراعاة الملاحظات التي يبديها- مستعمل المبنى على سبيل المثال- في المشاريع المستقبلية المماثلة [11].

وأسلوب تعبير الشخص العادي عن رأيه في العمل قد يأخذ أحد أساليب التالية[11]:

- الموقف تجاه البيئة: ويتم التعرف عليه من خلال الاستبيان أو المقابلة الشخصية وغيرها من أساليب البحث الميداني.
- تبنى سلوك جديد: وذلك بهدف التوافق مع البيئة الجديدة.
- التغيير غير المتعمد للبيئة: وهو ما يمكن رصده في التغيرات التلقائية التي يجريها المستعمل سواء كانت إيجابية أو سلبية.
- التغيير المتعمد للبيئة: حيث يمثل ذلك نوعاً من التعبير عن عدم الرضا عن العمل ويأخذ إحدى صورتين:
  * التحسين Improvement: وهو ما يمكن رصده في التعديلات التي يجريها المستعمل في المبنى بحيث تتوافق مع احتياجاته.
  * التخريب/ التدمير Destruction: وهى عبارة عن رد فعل مقصود عن طريق التدمير، للإعلان عن الاستياء بهدف جذب الانتباه نحو المشكلة، ويختلف عن التدمير المتعمد بدون هدف.

لذا من الممكن في مشروعات الإسكان العام التعامل مع التعديلات التي يجريها المستخدم على واجهات المبنى كأحد أساليب التعبير النقدي وقد تكون الوسيلة الوحيدة المتاحة للمستخدم للإعلان عن رأيه تجاه التصميم؛ حيث تمثل تلك التعديلات نوعا من التغيير المتعمد للبيئة المبنية بهدف تحسين وضعيتها بحيث تتوافق مع المتطلبات المادية أو المعنوية، وهي لا تمثل مجرد تعبير عن موقف فقط ولكنها تقدم حلول عملية لما يعتقد المستخدم أنه مشكلات فعلية تجعل من المنتج التصميمي غير مناسب لاحتياجاته وإمكانياته في وقت إجراء التعديلات.

لكن هل هناك إمكانية للاستفادة من ذلك الموقف النقدي؟، إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب مناقشة سبل الاستفادة من ذلك الموقف في عملية تصميم النماذج السكنية، والتي يمكن حصرها في صورتين:

- الأولي هي فكرة مشاركة المستخدمين المحتملين في عملية التصميم، لكن هل فكرة المشاركة قابلة للتطبيق فيما يتعلق بتصميم الواجهات؟، المنطق يرى إن تلك النوعية من المشاركة في غاية الصعوبة ولا يمكن للمصمم تبنى القيم الجمالية لعدد كبير من الناس ما لم تكن القيم الجمالية متفق عليها، غير انه سوف يفاجأ أن ذلك الاتفاق هو لمرحلة زمنية تختلف الآراء بعدها.
- الثانية الاستفادة من دراسة تلك التعديلات في تصميم النماذج المحتملة، وهي أيضا عملية بالغة الصعوبة ، فكما سبق مناقشته هذه النوعية من التعديلات وخاصة تلك المرتبطة بحاجات التعبير عن الذات لا يمكن توقعها، ولا يمكن تعميم نتائج الدراسات المتعلقة بها على مشروعات مستقبلية لمستخدمين غير من أجريت الدراسات عليهم.

مما سبق نرى أن ذلك الموقف النقدي أو تلك التعديلات تظل مجرد وجهة نظر معلنة تعطي مؤشرا لمناسبة النموذج السكنى لساكنيه وظيفيا ومعنويا، لكن لا يمكن الاستفادة منها بصورة محددة في التصميم المعماري للمشروعات المستقبلية.

6. الخلاصة والتوصيات

6.1 الخلاصة

- التغيير والتبديل في المسكن بمرور الزمن هو ظاهرة طبيعية ترتبط بالإنسان نتيجة لتغير الاحتياجات والإمكانيات مع مرور الوقت، غير أن التعديلات التي تجرى على المسكن لتحقيق الاحتياجات المهملة في التصميم الأصلي بحيث يناسب التصميم المعماري للمسكن مستخدمه الفعلي قد يكون هو السبب الأوضح للتغييرات التي يجريها السكان على مساكنهم، مع التأكيد على أن مفهوم الاحتياجات لا يتوقف عند حدود الاحتياجات المادية والوظيفية فقط بل يمتد ليشمل الاحتياجات المعنوية.
- تمثل مشروعات الإسكان العام بيئة مثالية للتعديلات التي يقوم بها السكان على وحداتهم السكنية، فخلال عملية التصميم المعماري لا تتاح للمعماري المصمم فرصة مقابلة المستخدمين الفعليين لتلك النماذج؛ وإنما يعتمد على مجموعة من الدراسات الاجتماعية والاقتصادية بالإضافة إلى تصوراته وخبراته الذاتية وغالبا ما يفترض أن تلك النماذج سوف توافق احتياجات عموم المستخدمين مما قد يخلق فجوة بين المصمم والمستخدم الفعلي.
- من الممكن تصنيف التعديلات التي يجريها السكان على واجهات المسكن إلى نوعين، أولهما تعديلات غير مقصودة لذاتها ولكنها تمثل أحد مظاهر محاولة المستفيد الفعلي توفيق التصميم المعماري مع متطلباته الخاصة بهدف استيفاء احتياجات وظيفية مفقودة في التصميم الأصلي للمسكن، والنوع الآخر هو تعديلات مقصودة لذاتها بحثا عن تميز أو إضافة جمالية من خلال وجهة نظر المستخدم، ومشروعات الإسكان العام لذوي الدخل المحدود بوحداتها المتماثلة وواجهاتها الرتيبة والتي يراها الغالبية مملة وغير مميزة تعد البيئة المثالية للنوع الثاني من تعديلات واجهات المباني السكنية.
- الحاجة للتعبير عن الذات هي أحد الحاجات الرئيسية للنفس البشرية (وخاصة في المجتمعات الأقل ثقافة والتي قد يغلب على بعضها النزعة الفردية) والتي لا يمكن تجاهلها حتى مع اختلاف المستوى الاقتصادي للفرد، والتعبير عن الذات أو الهوية الفردية كظاهرة اجتماعية هو فعل موجه للخارج... للآخرين هدفه الإعلان عن تلك الهوية، وتمثل الواجهة الخارجية للمسكن هي المكان الأكثر فعالية كوسيلة لإعلام الآخرين بالتميز والاختلاف، ومحاولة الساكن إعلام الآخرين بذلك التميز من خلال الواجهة يختلف من شخص لآخر حسب ذوقه الفردي أو الاجتماعي، وكذلك إمكانياته الاقتصادية، ومن ثم فإن التعديلات التي يجريها السكان على منازلهم ليس بالضرورة أن تكون تعبيرا عن عدم رضا المستخدمين عن التصميم الوظيفي للمسكن.
- يمكن التعامل مع التعديلات كمؤشر لمناسبة التصميم (سواء المناسبة المادية أو المعنوية)، لكن لا يمكن الاستفادة منها بصورة محددة في التصميم المعماري للمشروعات المستقبلية.

6.2 التوصيات

- من الأهمية عدم تقييد الوحدة السكنية بتصميمات ثابتة لمستعمل معين أو طبقا لوجهة نظر مسبقة؛ بل يفضل أن يوفر التصميم المرونة الكافية، إن تصميم الوحدات من هذا المنظور سوف يتيح للمستخدم بدائل متنوعة للتغييرات الوظيفية للبيئة الداخلية بما لا يؤثر على التصميم الأصلي للواجهة الخارجية للمبنى.
- التصميم الخارجي للواجهات غالبا ما يخضع للخيارات الشخصية للمصمم والذي يعتقد انه يطبق الفهم العام للجمال من وجهة نظره والتي قد تختلف عن الفهم الجمالي للمستخدمين، لذا فإن التميز الجمالي

للمبنى ككل من وجهة نظر المستخدمين من الممكن أن يقلل من التعديلات المرتبطة بتحقيق الذات فقد يتنازل الساكن أن يكون مسكنه مميزا إذا كان المبنى الذي يتضمنه المسكن مميزا

- من الأهمية إيجاد نوع من التوازن بين مفاهيم الشكل ومفاهيم الوظيفة عند تصميم الواجهات السكنية فالتركيز على مفاهيم الوظيفة قد ينتج عنه واجهات رتيبة مملة تفتقد للتميز الجمالي، وفي المقابل التركيز على مفاهيم الشكل رغم أنه قد ينتج عنه واجهات متميزة جماليا إلا أنه قد تتعارض بعض تفاصيل الواجهة الجمالية مع المتطلبات الوظيفية للمستخدم خلفها مما يجعلها عرضة للتعديل والتغيير بعد استخدام المبنى.

المراجع

[1] أحمد، محمد حمدي(1988): **"المرونة كمدخل لتصميم وحدات الاسكان الحضري في مصر"**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة أسيوط، مصر.

[2] الأبرق، فاروق عبد المجيد (2004): **"مرونة التصميم المعماري وتصنيع تركيبات البناء ودورهما في توفير المسكن الميسر"**، ندوة الإسكان 2 (المسكن الميسر)، الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، الرياض، المملكة العربية السعودية، 28-31 مارس 2004.

[3] باهمام، علي بن سالم (2008): **"توفير المساكن بمشاركة المستفيدين"**، كرسي مؤسسة الملك عبد الله بن عبد العزيز للإسكان التنموي -الجانب المعماري، جامعة الملك سعود، الرياض.

[4] عيد، محمد عبد السميع(1987): **"مشروعات المواقع والخدمات كمدخل لحل مشكلة إسكان ذوي الدخل المحدود في مصر"**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة أسيوط، مصر.

[5] مرغني، عزت عبد المنعم و عيد، محمد عبد السميع (ديسمبر 2004): **"المرونة كفكر ودورها في دعم استدامة المسكن"**، المؤتمر العالمي السابع عشر حول " الآفاق المستقبلية للسكن الإنساني"، كلية العمارة، جامعة البعث، حمص- سوريا، بالتعاون مع كلية العمارة جامعة فروتسواف التقنية، وارسو- بولندا، 29 نوفمبر/2 ديسمبر 2004.

[6] Aysu Akalin, Kemal Yildirim, Christopher Wilson, Onder Kilicoglu (2008): "**Architecture and engineering students' evaluations of house facades: Preference, complexity and impressiveness**", Journal of Environmental Psychology 29 (2009) 124–132, (available at Science Direct), (Available online 16 May 2008)

[7] Erdayu Os'hara Omar, Esmawee Endut & Masran Saruwono (2012): "**Personalization of the Home**", 1st National Conference on Environment-Behaviour Studies, Faculty of Architecture, Planning & Surveying, Universiti Teknologi MARA, Shah Alam, Selangor, Malaysia, 14-15 November 2009, Procedia - Social and Behavioral Sciences 49 (2012), (Available online at www.sciencedirect.com)

[8] John Zeisel (1974): "**Fundamental Values in Planning with the Non-Paying Client**", in (*Designing for Human Behavior: Architecture And Behavioral Sciences*), Edited by: John Lang &Others, Dowden,Htchinson&Ross Inc., Pennsylvania.

[9] Rapoport, Amos, (1969): "**House Form and Culture**", Prentice-hall Inc., London

[10] Thomas A. Markus (1993): "**Building as Social Objects**", in (*Companion to Contemporary Architectural Thought*), Edited by: Ben Farmer and Hentie Louw, ROUTLEDGE, London & New York.

[11] Wayne Attoe (1978): "**Architectural and critical imagination**", John Wiley & Sons, Ltd., New York.

*** مراجع الأشكال:**

جميع الصور المستخدمة في البحث من تصوير الباحث ما لم يشار إلى غير ذلك.

ALTERATIONS IN RESIDENTIAL BUILDINGS FACADES AS AN INDICATOR OF THE DESIGN SUITABILITY

Ezzat Abd El-Moniem Morghany

Associate Professor, Department of Architecture& Building Science,
College of Architecture & Planning, King Saud University

Received 13 November 2012; accepted 20 January 2013

ABSTRACT

The problem of incompatibility in the architectural design of some houses with the requirement of their residents is considered to be one of the residential areas problems, the alteration in the facades can be seen as an aspect of the user trials to reconcile architectural design of his house with his actual needs, Which makes the façade loses its original design and tern into a group of small facades, each reflects its user's preferences without any relation with the whole façade.

The aim of the paper is to study the possibility of dealing with alterations in the buildings facades as an indicator to measure the design suitability.

The paper discusses the concept of design suitability and deferent approach of designing the residential buildings facades in its first and second parts, In the third part of the paper, the alterations in the residential buildings facades is classified into two types, the first one is unintentional, but it is an aspect of the user's trail to meet the missed functional needs in the original design of his house, while the second type is the intentional alterations for either the seek of the individual identity or aesthetic reason from the user's point of view. The low income housing projects with their replica units and monotonous facades is the ideal environment for the second type of buildings facades alterations, in the last part; possibilities of take advantage of studying the alterations in the residential buildings facades is discussed.

The paper concludes that Alterations in the buildings facades can be considered as an indicator to measure the design suitability (functional or incorporeal), but designers can not take advantage of them specifically in the architectural design of the future residential projects. In the end; the paper presents some recommendations which can be useful in dealing with the problem of alterations in the buildings facades in the new designs of the mass-produced housing projects.